

إبداعات فنية بإسقاطات سياسية

استطاعت الأعمال الفنية الفلسطينية أن تصل إلى صالات المعارض في كافة أنحاء العالم منذ وقت طويل. إلا أن هذا الفن يفتقر للقوة اللازمة لطرح أفكارٍ سياسيةٍ أو اجتماعيةٍ بديلةٍ كما يرى كيرستن كنيب في هذه المقالة التي تقارب الفن الفلسطيني المعاصر.

ها هو يستلق هناك متمدداً عاقداً يده خلف رأسه، باسطاً إحدى ساقيه قليلاً ثانياً الأخرى. نعم هكذا يستلقي المرء عندما يكون مرتاح البال، في فصل الصيف الدافئ بالذات، عندما يريد التمتع بأشعة الشمس.

لكن للأسف المتعة مستحيلةٌ في هذه البيئة، فالرجل مستلق على حافة هاويةٍ سحيقةٍ من شأنها أن تكون حافة منضدةٍ مهولةٍ منحوتةٍ من خشبٍ صلب. لا مجال هنا للشعور بالراحة، وذلك أيضاً بالنظر للجدارين على الجانب الأيسر في الخلفية. جداران يرتفعان سامقين ومتراصين، أحدهما أسود اللون والآخر رمادي.

إذاً، لماذا يرقد ذاك الرجل هنا؟ من غير المرجح أن تكون غايته الاسترخاء. قد يكون عاجزاً عن الخروج، وهو حبيس المكان، ومنهك القوى بعدما حاول تخطي الجدارين بلا جدوى. هل يعكس العمل حالة سجين؟

انتظار في الضفة الغربية

"انتظار" هو عنوان هذه اللوحة للفنان الفلسطيني هاني زعرب المولود عام 1976 في رفح في قطاع غزة. ثمة رجاءٌ بقدم من يخلص المنتظر. لكن هذا المنتظر لا يأتي. الزمن يمضي ومعه يتخثر معنى الحياة الغائب والمرجو بإلحاح. حالة كهذه تترك المجال لتفسيرها بطرق عديدة: إما بشكل إنساني عام وطبقاً لتقاليد الفلسفة الوجودية، أو أيضاً بشكل سياسي. وعندما يرسم فنانٌ فلسطينيٌ مشهداً من هذا الطراز، فلا يبعد إرجاعه وربطه بالوضع في قطاع غزة والضفة الغربية.

لا بد للشخص المتمدد من أن يُذكر بأولئك الرجال العاطلين عن العمل الذين يراهم المشاهد الغربي كثيراً في التلفاز. حيث يجلسون في المقاهي في أغلب الأحيان، يتسامرون ويلعبون الورق أو الشطرنج، ويحاولون قتل الوقت بطريقةٍ أو بأخرى. هل هذا تعليقٌ فنيٌ على الوضع المتأزم في مناطق السلطة الفلسطينية، حيث لا يجري الوقت بالنسبة للكثيرين سوى ببطءٍ بائسٍ كما في لوحات الساعات الذائبة للرسم سلفادور دالي؟

الإنسان والقناع

هاني زعرب الذي يعيش ويعمل اليوم في باريس، فنانٌ بارعٌ يترك التفسير مفتوحاً على مصراعيه، كما هي الحال أيضاً في كل لوحاته الأخرى: طفل يقود سيارة لعبة أمام مساحةٍ رمادية اللون يمكن أن تكون جداراً ما، ويمكنها أن تكون جدار الفصل ذاته.

"درس طيران" هو عنوان هذه اللوحة التي رُسمت في عام 2008 – الطفولة الجميلة تبدو غير ذلك. وكذلك البورتريهات التي أعيد طلاؤها والتي رُسمت في نفس العام ضمن سلسلة "ستاندباي" (حالة انتظار) يمكن تفسيرها سياسياً: أناسٌ بلا وجوه، كما لو كانوا

خلف قناع. أشخاص بلا ملامح، شخصيات بلا أية هوية فردية. هل الفلسطينيون كتلة يتلاعب بها الساسة؟ يمكن للمرء أن يفهم الأعمال على هذا النحو، لكن هذا لا يتعين عليه بالضرورة. الفن في صلب جوهره فن تعدد المعاني. وفن هاني زعرب يحتمل معاني متعددة، فهو لا يشير باتجاه فلسطين وحسب، بل أيضاً باتجاه الحداثة الغربية.

قد يذهب المرء للتفكير بلوحة "صرخة" شخص بلا ملامح لإدوارد مونش Edvard Munch، أو بالشخصيات المسوخة في أعمال ماكس بيكمان Max Beckmann، أو بالوجوه المشوهة وربما بتعابير الوجوه المهيبة أيضاً لدى الفنان فرانسيس بيكون Francis Bacon. كلهم فنانون انفتحوا على الرعب والفضاعة بغض النظر عن مصدرها، أكان الأنا الذاتية المتصارعة مع الشياطين الداخلية، وربما الأنا التي تزرع تحت نير هذه الشياطين بلا حول ولا قوة، أو الآتية من الخارج، والناتجة عن ضغط سياسة منفلتة من عقالها. وضع الفن المُكرس لمواضيع الرعب معايير منذ فترة طويلة على أية حال، وصار فناً مُعوّلاً، تتجاوز جمالياته كل حدود، ويفهمه الجميع. وقد أصبح هناك متسع لهذا الفن في فلسطين منذ فترة طويلة.

ما بعد الفن البطولي

لكن من ناحية أخرى: هل ثمة إمكانية أخرى للتعبير؟ هل ما زال الفن السياسي الذي نشأ في السنوات السابقة مُقنعاً؟ الواضح أن الأمر ليس كذلك. إن الفن "الملتزم" كما قدمه الفنان عبد الحي مُسلم، الذي غدا مؤرخاً، وربما حتى سيد الطقوس الفنية في المقاومة الفلسطينية، قد استنفذ إلى حد بعيد.

"الصمود" ملحمة بطولية تعود لعام 1983، مهداة للمقاتلين في عين الحلوة، أكبر مخيم للاجئين الفلسطينيين في لبنان، والذي اجتاحه الجيش الإسرائيلي في عام 1982. قلما يرى المرء اليوم في الفن الفلسطيني المعاصر صوراً بطولية من هذا الطراز.

كلا، في الفن الفلسطيني المعاصر يكاد لا يمكن العثور على نداءات الصمود التي استحوطت فناً في السابق. ولا غرابة في ذلك، فعملية السلام مع إسرائيل في ركود، والضفة الغربية عاجزة عن الوقوف أمام إسرائيل ومضطرة للقبول بقضم جزء كبير من أراضيها جراء ما يفترسه بناء المستوطنات الإسرائيلية منها. علاوة على ذلك هناك التشرذم الفلسطيني، والانقسام إلى معسكرين متعادين بين حركتي فتح وحماس. خيبة الأمل منتشرة في كل مكان وتنعكس أيضاً على أعمال الفنانين الفلسطينيين، الذين يعنون بوضوح بتقديم فن ما بعد بطولي ويتمرسون نظراً للوقت الرصاصي في هيئات مقتنصة.

وداع المناظر الطبيعية الحاملة

الفنان جاد سلمان من مواليد مدينة طولكرم 1983 يعيش اليوم في باريس، جعل لافتة تحذير إحدى حواجز التفتيش الإسرائيلية تضيء براقاً بألوان الباستيل، بشكل يشبه مساحات اللون الرقيقة للمناظر الطبيعية الحاملة في منطقة البحر الأبيض المتوسط كما رسمها من قبل فنانون مثل أوغست ماك August Macke وباول كلي Paul Klee أو هنري ماتيس Henry Matisse – وسط هادئ بأسلوب ساخر، يتصنع بالألوان مشاهد جميلة لم يعد لها وجود بهذا الشكل في الضفة الغربية.

تحولت الطبيعة إلى مناطق إدارية مُقطّعة جرى تصميمها على طاوولات السياسة. وثمة جدار يرتفع أمتاراً ويلتهم الأرض على طول الحدود، ويقطع أوصال المناطق، التي لا بد من أن تبقى منفصلة عن بعضها البعض إلى الأبد، بحسب نظرة بُناة هذا الجدار. ليس من شأن حتى القدير أن ينجح في تغيير شيء في ظرف من هذا القبيل. أو هذا على الأقل ما يشير إليه الفنان التشكيلي سليمان منصور المولود عام 1947 في بير زيت، ففي لوحته الجدارية التي رسمها على الجدار الفاصل في رام الله نرى لمسة الرب وأدم والأصابع الممدودة – وهو المشهد الرئيس للوحة مايكل أنجلو الشهيرة التي رسمها على سقف كنيسة سيستينا في روما.

لكن حين تكاد يد الخالق أن تلاقي يد المخلوق في عمل فنان عصر النهضة الإيطالي، نرى أصابع الرب وأدم في رام الله تبعد أمتاراً عن بعضها البعض. ويبدو أنه حتى المصافحة البسيطة في فلسطين ليست في إطار الممكن.

أهوال الحرب

أما إذا حدثت اللقاءات، فتكون قاسية في أغلب الأحيان. هذا ما تظهره على الأقل الفنانة فيرا تماري، التي ولدت في القدس عام 1945 وتعمل اليوم في رام الله. "القيام بنزهة" اسم التركيب الفني الذي أنجزته في عام 2002. حيث تُظهر ركام أربع سيارات سويت بالأرض، مصفوفة بدقة وعناية خلف بعضها البعض.

من شأن المرء في العالم الغربي أن يفهم هذا العرض على أنه نقد للمجتمع الاستهلاكي – لكن في فلسطين تندفع في الأذهان

تداعيات حول لقاءات بآسة بالدبابات الإسرائيلية، وحول حوادث وقعت على ذاك "الطريق إلى اللامكان"، الذي يقود في عمل فيرا تماري الفني مباشرة إلى العدم. أما الفنانة رولا حلواني التي تعمل في القدس فتعرض الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بأسلوب أكثر مباشرة وأكثر عنفاً. "غارة سلبية" اسم سلسلة من نسخ نيجاتيف صور فوتوغرافية أنتجتها عام 2002 بمناسبة الحصار الذي فرضته القوات الإسرائيلية على كنيسة المهد في بيت لحم واستمر أكثر من خمسة أسابيع. تظهر فضاء الحرب هنا بطريقة عنيفة يصعب الذهاب إلى أبعد منها.

الفن بوصفه كرونولوجيا

يسجل الفن الفلسطيني أحداث الواقع. وبهذا يقول عن نفسه الكثير في ذات الوقت. إنه سياسي بدرجة عالية. ولكنه في نفس الوقت منهُك القوى إلى حد كبير - على الأقل بمفهوم عجزه عن فرض فضاءاته الخاصة إزاء واقع ذي سطوة شديدة جداً. لا يقود الفن إلى عالم أفضل، ولا يبقى إلا اللجوء إلى السخرية والاقتضاب.

ولكن من ناحية أخرى: من ذا الذي ما زال يأمل بالخلاص اليوم عبر الفن؟ مضى منذ فترة طويلة زمن الاستعلاء بوصفه درجة مرجوة، وفي أحسن الأحوال يمكن أن يوظف الفن باعتباره معارضة للواقع، لكن في ظل سطوة الواقع الجارفة يكاد لا يستطيع سوى الشهادة على هذا الواقع. وبذلك يتولى الفن وظيفة الكرونولوجيا، فهو لا يستطيع الإيمان بعالم أفضل، وهو أعجز من أن يقوم بتصميم عالم كهذا.

كيرستن كنيب

ترجمة: يوسف حجازي

حقوق النشر: قنطرة 2010

قنطرة

معهد مانيفيكات الموسيقي في القدس:

[عالم موسيقي موحد في مدينة مقسمة](#)

تعد القدس عاصمة الديانات السماوية الثلاث وهنا في قبو أحد الأديرة في البلدة القديمة في مدينة القدس توجد المدرسة الموسيقية الوحيدة التي يتعلم فيها طلبة مسيحيون ويهود ومسلمون العزف والغناء الجماعي. دانيال بيلتر قام بزيارة لهذه المدرسة في مدينة القدس وأعد هذا التقرير.

المطربة الفلسطينية ريم بنا:

[الموسيقى والحفاظ على الهوية](#)

تتحدث معظم أغاني ريم بنا عن معاناة الفلسطينيين - بشكل ملحّ وعاطفي وأحياناً بصورة قاسية تبلغ حدّ الابتذال. تملك المطربة الفلسطينية ريم بنا الكثير من المعجبين الفلسطينيين في إسرائيل وفي المناطق المحتلة. ومع ذلك ظلت الى ما قبل فترة قصيرة غير معروفة تقريباً على المستوى العالمي. ريم سجلت الآن ألبومها العالمي الأول "مرايا روحي". مارتينا صبرا تعرّفنا هنا على هذه الفنانة الفلسطينية.

موسيقار الفلسطيني عادل سلامة:

[الحوار هو روح الفن!](#)

"منذ صغري وأنا أستمتع إلى موسيقى العود، فألمي كانت تغني وأبي كان يعيش الاستماع إلى فريد الأطرش. "عادل سلامة ملحن وعازف عود فلسطيني يقيم في أوروبا منذ عام 1990، أصدر عدداً من الأعمال الموسيقية. ينتمي سلامة إلى الموسيقين العرب الذين يتخذون من أوروبا مكاناً لإيصال موسيقاهم إلى المتلقي العربي وغيره. عادل سلامة أيضاً داعية فعال للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين. صالح دياب أجرى معه الحوار التالي.

Source URL: <https://ar.qantara.de/content/lfn-lflstyny-lmsr-bdt-fny-bsqtt-sysy>